

خصائص الأنوثة

كتاب للمرأة كي تعرف حقيقتها

وللرجل كي يفسر سلوكها

محمد سلامة جبر

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

خصائص الأنوثة

محمد سلامة جبر

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الثانية

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م



للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية

الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر

هاتف : ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين

هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)

بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩

البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com

موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com



الفَصْل الأولْ

إدراك خصَائص الأنوثة

تمهيـد :

قيـام البيت المسلم يتـوقف على صـلاح الـزوجين كليهما ، وإذا نـزل أحـدهمـا عن درجـة الكمـال ، عـانى الآخر عاقبة ذلك النقصان ، والذريـة من بعـد متـأثرة بكل ما ترى وتسمع .

وليس كال الرجل مماثلاً لكمال المرأة ، وكذلك المرأة تباين في كالها كال الرجل ، فما يكمل بـه أحـدهمـا قـد ينقص بـه الآخر ، إذ لكل منهما خـاصـة تفرد بهـا ، وتلك الخاصة هي بعينها فيصل ما بينهما .

أهمية إدراك طبيعة المرأة :

ولإدراك طبيعة المرأة أهمية عظيمة لها وللرجل على السواء ، أما لها ، فلكي تعرف حقيقتها ، وتدرك خصائصها ، فتضع نفسها موضعها ، ولا تتجاوز بها حدها ، ورحم الله امرءًا عرف قدر نفسه فوضعها موضعها ، فما سقطت المرأة إلا حين جهلت طبيعتها ، وأنكرت خصائصها ، وتمردت على أُنوثتها ، حتى نادت بضرورة إلغاء نون النسوة من اللغة ، ولا عجب ، فالجهل يولد أكثر من ذلك وما أكثر ما نرى ونسمع .

وأما أهمية تلك المعرفة للرجل ، فحتى يعلم كيف يَسُوسُها ، وبم يفسر سلوكها ، وما الذي يصلحها وما الذي يفسدها ، فالضارب في أرض مجهولة لديه أولى به أن يتيه في مجاهلها ، ويضل في مفاوزها ، وسأبين إن شاء الله مجمل خصائص المرأة التي كانت بها أنثى ، وستظل هي هي خصائصها ما دامت أنثى ، ولن تتغير

إلا أن تصبـح شيئـــًا آخر غير الفطرة التي فطر الله الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم .

مستند تلك المعرفة :

ومستند تلك المعرفة ، الكتاب والسنة ، وبالدرجة الثانية ما جاء عن بعض أئمتنا الأعلام في حكمهم على المرأة فهمًا منهم لما ورد في الكتاب والسنة . أو تتبعًا لسلوكها واستقراء تصرفاتها واستخلاص النتائج من خلال ذلك .

أما ما جاء في كتب علم النفس الحديث الخاص بالمرأة فقاصر عن الإحاطة بحقيقتها بعيد عن إدراك مجاهلها ، ونحن كمسلمين لا نشك في أن معرفة النفس لا تعرف على وجه الحق والكمال إلا بإعلام الله خالق النفس ، فحيث جاء في الكتاب أو السنة ما يدل على حقيقة معينة فلا يحل لنا إلا الإيمان والتسليم حتى لو

جهلنا السر والحكمة ﴿ وَالرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1] .

• غير أنه إن جاء علم النفس الحديث بقول بلغ درجة الحقيقة في القوة والوضوح ، فلا أعتقد أنه يتعارض مع ما جاء به الشرع من حقائق ، فالشرع يعطيك الحق خالصاً ومن أقرب طريق ، والعلم التجريبي بعد ذلك إما أن يثبت أو يعجز عن الإثبات أو يأتي بقضية مخالفة لما لدينا مما أتانا به ديننا ، وكل ذلك لا نباليه ، فالحق عندنا ما جاء من عند الحق وحده ، أو دل عليه الدليل الحق ولم يصطدم بقاعدة شرعية .

---

(١) آل عمران ٧ .

• ولخطورة القضايا التي سأقررها إن شاء الله ، ولغرابتها وبعدها عن القبول ثانياً ، ولتعارضها مع الكثير مما نظن أنه من خصائص الأنوثة ، أحب أن أقرر أنني ما دونت إلا ما أعلم أنه الحق وبالدليل الحق ، وعلى من يرى غير ما أرى من رجل أو امرأة أن يلزمني بالدليل وأسأل الله أن يجعلني وإياهم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب .

وأذكر نفسي والمسلمين والمسلمات بقوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلاً مُّبِينًا ﴾ . [1]

---

(١) الأحزاب ٣٦ .

وقولهْ تعالى : ﴿ **فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا** ﴾ [1] .

قاعدة ومفتاح :

أخرج أحمد والترمذي وأبو داود عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والسهل والحزن ، والخبيث والطيب** » .

قلت :

هذا الحديث هو العمدة في الباب ، ودلالته بعيدة النتائج ، عميقة الأثر ، ويؤيده في معناه ، ويؤكد صحةَ مبناه أحاديث وآيات سأذكرها إن شاء الله .

---

(١) النساء ٦٥ .

أمـا من الآيـات فقولـه تعـالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾ [1] قـال الإمـام الـدهلوي رحمـه الله في « حجة الله البالغة » : أي طريقته التي جبل عليها

وقـولـه تعـالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ وجه الدلالة من الآية أن الله سبحـانـه وتعـالى أخبرنا ـ وإخبـاره الحق ـ أن أهل النـار بعـد معـاينتهم للنار وما قبلهـا من أهوال الموت وعـذاب القبر وأهوال الحشر ، فإنهم على الرغم من كل ذلك عائدون لعمل مـا نُهـوا عنـه وتسبب في دخـولهم النـار واستحقـاقهم العذاب ، ومثل ذلك لا يتصور إلا ممن جبل من طينة خبيثـة كما أفـاد الحـديث السـابـق ، واستلـزمت تلـك الطينة الخبيثة طبيعة مثلها وأعمالاً على شاكلتها .

أمـا من الأحـاديث فقـد قـال الإمـام الـدهلوي في

---

(١) الإسراء ٨٤ .

(٢) الأنعام ٢٨ .

« حجة الله البالغة » باب اختلاف الناس في جبلتهم المستوجب لاختلاف أخلاقهم وأعمالهم ومراتب كمالهم :

والأصل فيه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال : **« إذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوا ، وإذا سمعتم برجل تغير عن خلقه فلا تصدقوا به ، فإنه يصير إلى ما جبل عليه »** رواه أحمد .

قلت :

والمقصود بقوله ﷺ « تغير عن خلقه » أي طبعه الذي جبل عليه لا أخلاقه ، فهي قابلة للإصلاح والفساد وإلا لما كان للأمر والنهي فائدة ولا كان لإبليس وجنوده عمل .

أما الفرق بين الأخلاق القابلة للتغيير وبين الطباع غير القابلة ، فهي أن الأخلاق هيئة في النفس ترسخ بالعادة والاستمرار على فعل معين أو ترك له ، بينما الطباع أثر لنوع التربة التي خلق منها الفرد كما جاء في الحديث المذكور « والسهل والحزن ، والخبيث

والطيب » فالسهل الهين اللين ، والحزن الصعب الشديد كالأرض الوعرة ، أما الخبيث والطيب فمعروفان من هما ، ونحن نشاهد في حياتنا العادية ومن خلال تعاملنا مع الناس صدق هذا الحديث الشريف ودقته في التحديد ، فكم من الناس من تجد فيه الخبيث واضحًا جليًا ، وآخر ترى فيه الطيب ينم عنه وجهه وقوله وعمله ، وقد تمتزج الطينتان فيكون ممن خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا عسى الله أن يتوب عليهم ، ولعل هذا شأن الكثير من الناس ونسأل الله العافية .

ومن الأحاديث الصحيحة المشهورة في هذا الباب قوله ﷺ : **« الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا »** [1] .

---

(١) مسلم / في البر والصلة .

الثمرة :

وثمرة هذا الذي وضحت ـ بدلالة الكتاب والسنة الصحيحة ـ إثبات حقيقة لا مراء فيها ولا ارتباب ، لأنها من فيض ما لا مراء فيه ولا ارتياب ، تلك هي « ارتباط الخصائص والطباع بأصل الخلقة البشرية ، وطبيعة الجبلة الإنسانية » فكل مخلوق إنما تقررت فيه خصائصه يوم نشأته ، وتحددت طباعه حين خلقته ، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ [1] كما أشار إليه المفسرون .

طبيعة المرأة :

وإذا تقررت تلك الدقيقة ، وتبينت منها الحقيقة ، فلم يبق إلا البناء عليها ، والرجوع في المعضلات إليها ....

---

(١) الإسراء ١٣ .

وإذا كنا بسبيل تقرير « طبيعة المرأة » فأقول والله المستعان :

قال تعالى : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً** ﴾ .[1]

وقوله تعالى : ﴿ **خلقكم من نفس واحدة** ﴾ يعني آدم عليه السلام .

وقوله سبحانه : « **وخلق منها زوجها** » أي حواء أمنا .

وفي الآية دلالات متعددة :

فأولاً : دلت الآية على أن الرجل أصل للمرأة والمرأة فرع عن الرجل .

---

(١) النساء ١ .

وثانيًا : يعني ذلك أن الرجل متبوع وزوجه له تابعة .
وثالثًا : المتبوع له درجة القوامة ، والتابع عليه لزوم الطاعة إلا في معصية .

قال تعالى : ﴿ **ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ** ﴾ . [1]

وقال رسول الله ﷺ :

« **خير نسائكم التي إذا نظر إليها زوجها سرته ، وإن أمرها أطاعته** » . رواه النسائي ونص العراقي في الأحياء على صحته فقال : النسائي من حديث أبي هريرة نحوه بسند صحيح وقال ـ أي النّسائي ـ ولا تخالفه في نفسها ومالها .

ورابعًا : الحكمة في خلق حواء من آدم استصحاب الرغبة عند كليهما للعودة إلى الاتحاد إذ لا غنى لأحدهما عن الآخر ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ **هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ**

(١) النساء ٣٤ .

﴿ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾[١] وقوله سبحانه : **﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾** وقوله تعالى : **﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾**[٢] .

وخامسًا : يختلف حب الرجل للمرأة عن حبها له لانفصالها عنه وكونه لها أصلاً وكونها فرعًا منه ، فحبها له كحنين الغريب إلى وطنه ، وهو يحن إليها حنين الكل إلى جزئه الذي انفصل عنه ، لذلك هو يحس بالنقص لفقدها ، وهي تحس بالضياع لبعده كضياع الغريب في غربته .

وسادسًا : لم يَرد أن حواء خلقت من نصف زوجها إذ لو حدث ذلك لكانت صورة ثانية عنه ولأشبهته في كل شيء ولكن الحكمة الإلهية اقتضت خلقها من ضلعه كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة .

---

(١) البقرة ١٨٧ .

(٢) الروم ٢١ .

وسابعا : لما كان المخلوق يكتسب طبيعته وخصائصه من أصل خلقته كما بينت سابقًا ، لذلك فقد اكتسبت المرأة « طبيعة الميل مع الأهواء واعوجاج السلوك » من طبيعة الضلع الذي خلقت منه .

ويدل لذلك قوله ﷺ : « **المرأة كالضلع إن قومته كسرته ، فدعه تستمتع به على عوج** » رواه البخاري ومسلم . وسأبين ذلك في الفصل القادم إن شاء الله .

الفَصْل الثانيْ

المرأة خلقت من ضلع أعوج

انتهيت في الفصل السابق إلى تقرير حقيقة هامة عليها ينبني إدراك خصائص الأنوثة ، ومعرفة طبيعتها الراسخة . أما تلك الحقيقة ، فهي ارتباط الخصائص والطباع بأصل الخلقة البشرية وطبيعة الجبلة الإنسانية فكل مخلوق إنما تقررت فيه خصائصه يوم نشأته وتحددت طباعه حين خلقته ، وقد دَلَّلْتُ على ذلك بآيات وأحاديث صحيحة تفيد ذلك المعنى وقد عَبَرْتَ من تقرير تلك الحقيقة إلى فهم طبيعة المرأة بالتدبر فيما ورد بشأنها من آيات وأحاديث تشير إلى خصائص معينة تفردت بها المرأة عن الرجل وفي هذا الفصل أُتِمُّ إن شاء الله بيان الخِصّيصة السابعة التي ترتبت على خلقها من ضلع آدم عليه السلام فأقول :

• **الخاصة السابعة :**

• **الميل عن الحق إلى الهوى :**

« الميل عن الحق إلى الهوى » المعبر عنه بالعوج بإخبار صحيح عن الصادق المصدوق ﷺ ، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **استوصوا بالنساء خيرًا ، فإن المرأة خلقت من ضِلَعٍ ، وإن أعوج ما في الضِّلَعِ أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء** » .

وفي رواية لمسلم : « **إن المرأة خلقت من ضِلَعٍ لن تستقيم لك على طريقة ، فإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عِوَجٌ ، وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها** »

• الخاصة الثامنة :

• الحنو :

« الحنو » فانحناء الضلع وإن ترتب عليه العِوَجُ فإنه يفيد كذلك انحناء المرأة على وليدها وزوجها بالرعاية والعناية وهذا مشاهد .

• الخاصة التاسعة :

• الضعف :

« الضعف » فإن الضلع في ذاته ضعيف يسهل كسره فنشأ عنه بخلق الله ضعف المرأة ، ولذا كان الكثيرون من ذوي الأهواء يشككون في هذه الحقيقة ، لكي يصلوا من ذلك إلى تحقيق مآربهم من إيهام المرأة بأنها في قوة الرجل ، وإذا كانت كذلك فلتزاحمه في ميدانه فإنها لذلك أهل .

• دليل على خاصة الضعف :

أما دليلي على خاصة الضعف عند المرأة فزيادة على ما هو مشاهد وواضح لدى كل بصير أذكر قوله ﷺ **« اللهم إني أحرِّج حق الضعيفين : اليتيم والمرأة »** قال النووي : رواه النسائي بإسناد جيد .

وقال رسول الله ﷺ في حجة الوداع : **« ألاَ واستوصوا بالنساء خيرًا فإنما هُنَّ عَوان عندكم »** رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

قال النووي : قوله ﷺ « عوان » أي : أسيرات (جمع عانية) .

قلت :

وهذا دليل أيضا على ضعفهن ونزولهن عن درجة الرجل في القوة وإلا لما وصفن بالأسر لدخولهن تحت حكم الزوج .

• الخاصة العاشرة :

١ ـ نقصان العقل ، والدين :

ويدل لذلك الحديث الصحيح المشهور : « **ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن** » قالت امرأة منهن وما نقصان عقلنا وديننا ؟ قال ﷺ :
« **أليس شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد ؟ فذلك نقصان العقل وأليست المرأة إذا حاضت لم تصل ولم تصم ؟ فذلك نقصان الدين** »جزء من حديث اتفق عليه البخاري ومسلم .

قلت :

وقوله ﷺ « **ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لـــذي لب منكن** » يعني أن المرأة على الرغم من أنها ناقصة العقل والدين فإنها تغلب ذا اللب من

الرجال أي صاحب العقل الراجح لما لها عليه من سلطان الفتنة والجمال ، ويؤيد ذلك قوله ﷺ : « **ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء** » متفق عليه .

ولعل خلق المرأة من مكان قريب من قلب الرجل وهو الضِّلَع جعله ـ بإذن الله ـ متعلقًا بها لا يصبر على فتنتها إلا من رحم ربك ، قال يوسف عليه السلام :

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[١] .

● سر تحريم النظرة والمجالسة .. والخلوة قال حكيم :

قال حكيم :

« إذا استعصى إنسان على الشيطان أتاه من قبل النساء » .

---

(١) يوسف ٣٣ .

والمشاهدة والتجريب يؤيدان ذلك ، وهذه الحقيقة هي سر تحريم النظرة والمجالسة والخلوة سداً للذريعة وحفاظًا على طهارة القلوب المؤمنة .

قال تعالى : ﴿ **قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** ﴾ (النور : ٣٠) .

﴿ **وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ..** ﴾ (النور : ٣١) .

• ماهية النقصان المذكور :

حين سألت امرأة رسول الله ﷺ « ما نقصان عقلنا وديننا » أجاب ببعض لوازم النقص ومظاهره تقريبًا لعقول النساء اللاتي كن يحضرن مجلس تعليمه ﷺ ، وكان الدرس خاصاً بالنساء كما رغبن بذلك إلى

رسول الله ﷺ، ونستطيع بإذن الله أن نفهم من الحديث شيئًا كثيرًا وأشير إلى أهم ما فيه :

أ ـ أن الجهر بالحق له الأولوية المطلقة ، ولا ينبغي أن نكتم علمًا علمناه خشية جرح شعور السامعين ، وحيث يمكن التعريض ويفهم السامع نعرض وإلا فالتصريح بالحق وعلى المؤمن أن يرضى بحكم الله .

ب ـ أن التزلف إلى المرأة ومراعاة شعورها ببيان ما ورد بشأنها من حقوق والاجتهاد في إعلاء منزلتها ورفع مكانتها ، هذا أمر غير مشروع إلا إذا كان مقدمة لقرع سمعها بالحق الذي جاء من عند الله .

ج ـ أن النسوة اللاتي سمعن تلك الحقيقة من رسول الله ﷺ لم يزدن أن سألن عن ماهية ذلك النقص الذي ابتلين به ، ولما سمعن الإجابة سكتن وسلمن ولم تحتج واحدة منهن على ذلك وتسأل : لم فضل الرجال

على النساء وبأي حق كان ذلك ، وهذا شأن المؤمنات الصادقات رضوان الله عليهن .

• الخاصة الحادية عشرة :

• التقلب

« التقلب » فالمرأة أبداً لا تثبت على حال ، ولا تستطيع أن تضع لنفسك قاعدة تلتزم بها لترضيها ، فما يسرها منك اليوم قد يغضبها غداً والعكس أيضاً صحيح وهذا بعض معنى قوله ﷺ فيما سبق من الحديث **« لا تستقيم لك على طريقة »** وهو أيضا من لوازم العوج المتأصل في فطرتها :

قال أحد الحكماء : « قد تقدم لزوجك زهرة فتشكرك عليها وتعدُّها منة ، وربما قدمت لها الدنيا بأسرها فعتبت عليك ، لِمَ لم تلفها لها بغلاف جميل ؟ » .

• الخاصة الثانية عشرة :

• الانفعال :

« الانفعال » هو سرعة الاستجابة لمؤثرات الحزن والفرح والرضا والغضب بحيث يغلب ذلك على نفسها فتتخذ مسالك غير حكيمة ، فمثلاً :

كثيرًا ما يحدث أن يقصر الرجل في حق من حقوق زوجته ، فيغضبها ذلك غضبًا يخرجها عن حدها ، فتنسى حقه عليها وما سبق منه لها ، فتصيح في وجهه : « والله ما رأيت منك خيراً قط » .

هذا من الجحود الذي أشار إليه ﷺ بقوله : « **وتكفرْن العشير** » وذكر أنه من أسباب دخول النساء النار والعياذ بالله ، فلتحذر المرأة الصالحة ذلك فإنه من المهلكات « **وتحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم** » .

• الخاصة الثالثة عشرة:

• الصبر وقوة الاحتمال :

« الصبر وقوة الاحتمال » وهذا مشاهد لدى من لم تفسدهن مظاهر الحضارة وتفقدهن خصائص أنوثتهن فالأصل في الأنثى صبرها على تكاليف الحمل والولادة وعشرة الزوج المتسلط واحتمال البقاء في البيت مدة طويلة قد تطول سنوات ، وحبس نفسها دون زواج بعد وفاة أو طلاق من أجل أبنائها اليتامى . كل هذه الفضائل مركوزة في أصل فطرة المرأة غير أن الحضارة والثقافة المسمومة أفسدتها ، ويشهد لذلك سيرة أمهاتنا من الأجيال السابقة حين كن على الفطرة الخالصة لا تشوبها شائبة - قال رسول الله ﷺ :

« إذا صلت المرأة خمسها ، وصامت شهرها وحفظت فرجها ، وأطاعت زوجها دخلت جنة ربها » رواه ابن حبان .

وقال : « **حاملات والدات رحيمات بأولادهن لولا ما يأتين إلى أزواجهن دخل مصلياتهن الجنة** » رواه ابن ماجه والحاكم وصححه .

● الخاصة الرابعة عشرة :

● شغلهن الذهب والزعفران :

التعلق بالتفاهات بحيث يشغلهن ذلك عن أداء حق ويدل لذلك قوله ﷺ : « **اطلعت في الجنة فإذا أقل أهلها النساء فقلت أين النساء ؟ قال شغلهن الأحمران : الذهب والزعفران** » رواه أحمد بسند ضعيف والمعنى شغلتهن الحلي والثياب المصبغة .

قلت :

وقد ورد قريبًا من معناه حديث صحيح اتفق عليه البخاري ومسلم بلفظ « **اطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء ، فقلن : لم يارسول الله ؟ قال : يكثرن اللعن ويكفرن العشير** » .

ولعل قوله ﷺ « **شغلهن الأحمران** » ينطبق في زماننا هذا على جنون الموضة والإسراف في الزينة المشاهد عند عامة النساء إلا من رحم ربك .

● الخاصة الخامسة عشرة :

● الإيثار:

« الإيثار » ويدل لذلك ما روته السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : « جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتها ثلاث تمرات ، فأعطت كل واحدة منهما تمرة ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها ، فاستطعمتها ابنتاها فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما ، فأعجبني شأنها فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ فقال : « **إن الله قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار** » رواه مسلم .

• الخاصة السادسة عشرة :

• ضيق الشعور :

« ضيق الشعور » أي ضيق المنافذ المؤدية إلى العقل نتيجة لغلبة هوى معين على القلب ، كما هو الحال مع زوجة العزيز في محاولة فتنتها يوسف عليه السلام فإنها رغم افتضاحها أمام زوجها واستعصام يوسف عليه السلام فإنها استمرت في محاولاتها للحصول عليه ، وصرحت بعزمها أمام النسوة ولم تخجل وذلك لغلبة الهوى على قلبها وسده المنافذ إلى العقل ﴿ **قَالَتْ فذلكنّ الذي لُمْتُنَنِيّ فيه ولقد راودته عن نفسه فاسْتَعْصَمَ ، ولئن لم يفعلْ ما آمره لَيُسجَنَنّ وَلَيَكونَا من الصاغرين** ﴾ .

وليس إلى هذا المستوى يصل النساء فالعفة في صالحاتهن ظاهرة لا تنكر ، غير أن أصل امتناع المرأة عن الاقتناع وعدم استجابتها للحجة والمنطق في مقابلة

رغباتها وأهوائها هذا حق مشاهد وعكسه قليل ، ولا يبعد أن تجد في الرجال من حوى كافة الرذائل ، وفي النساء من جمعت أمهات الفضائل ، فذلك أيضًا مشاهد غير أنه قليل ، كما قال رسول الله ﷺ **« كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع ، آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد »** ﷺ ورضي الله عنهن جميعًا .

وليس من لوازم تلك الخصائص أن تجتمع في كل النساء ولكن بعضها حتم لازم لا مفر منه والبعض الآخر قد يوجد كله أو بعضه وبدرجات متفاوتة بمقتضى مشيئة الله المطلقة وحكمته البالغة .

وأسأل الله أن يهديني لما اخْتُلِفَ فيه من الحق بإذنه إنه يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

والحمد لله رب العالمين .

الفَصْل الثالثْ

هل نحطم شخصيّة المرأة بالتسلط عليها

قالوا :

جعلت المرأة مجرد تابع للرجل ليس غير

وقولك إنه الأصل وهي عنه الفرع

وما رتبته على تلك المقدمات من نتائج وآثار

كل ذلك جعل منها مخلوقًا تـافهـًا لا يحس بوجوده ولا يعترف بمسؤوليته ، وأنت بذلك تحطم شخصيتهـا ، وتعطي المتسلطين عليها مزيدًا من الحق والشرعية .

ولئن سلمنـا جـدلاً بمـا قلت : فليس هــذا طريـق إصلاح المرأة .

قلت :

والاعتراض الوارد من وجهين :

● **الوجه الأول :**

جعل المرأة في الدرجة الثانية ، وإنزالها عن مرتبة الكمال .

● **الوجه الثاني :**

أنه إن صح ما قلت فنشره لا يليق حتى لا نمكّن للرجل من المرأة زيادةً عما هو عليه من تسلط واضح وحكم جائر .

وفي الرد على الوجه الأول أقول والله المستعان :

أما قولك جعلت المرأة تابعة وأنزلتها عن مرتبة الكمال فما ذلك بجعلي ولا ينبغي لي ، وقد سبق أن قلت إنني أستند في كل ما كتبتُ إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فمن وجد غير ذلك فليرشدني وجزاه الله خيراً .

وإذا تبين أن ما قررتـه هو حكم الله ورسولـه ، فلا جَرَمَ أنه لا خِيارَ لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً ، وصدق الله العظيم .

﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِيٓ أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ . (١)

فإن قلت :

« دعواك بأن ذلك حكم الله ورسوله مردودة ، وقضيتك غير مسلّمة إذ لا دليل عليها » ! .

أقول :

أحسنت في طلب الدليل ، فأحسن الاستماع إليه والنظر فيه ، والله يهديني وإياك إلى سواء السبيل .

(١) النساء ٦٥ .

• إزالة وَهْم :

وقبل أن أشرع في المقصود أحب أن أزيل وهمًا لعله من الأسباب المانعة من التسليم ، ذلك أن أفضلية النوع لا تستلزم أفضلية الفرد عند الله ، فكم من النساء من تزن عند الله آلافًا من الرجال ، وكم من الرجال من لا يزن عند الله جناح بعوضة ، وما يضير المرأة كونها في عصمة الرجل وتحت سلطانه ما دامت هي وإياه عبدين من عباد الله خاضعين لحكمه عاملين بأمره ؟

وما يفيد الرجل سلطانه على المرأة إذا طغى وتجبر ولقي الله بجهالة أهله وتقصيره في حقوقها ؟

وقال ابن جرير الطبراني في تفسير قوله تعالى :
﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا

ٱكْتَسَبْنَ وَسْئَلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [١]

قال رحمه الله : « وذكر أن ذلك نزل في نساء تمنين منازل الرجال وأن يكون لهن ما لهم ، فنهى الله عباده عن الأماني الباطلة وأمرهم أن يسألوه من فضله إذ كانت الأماني تورث أهلها الحسد والبغي بغير الحق » .

• ثم روى أن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت : يارسول الله تغزو الرجال ولا نغزو وإنما لنا نصف الميراث ، فنزلت : **﴿ ولا تتمنَّوْا ما فَضَّلَ اللهُ بهِ بَعْضَ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مما اكْتَسَبُوا وللنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾** ونزلت : **﴿ إن المسلمين والمسلمات ﴾** .

---

(١) النساء ٣٢ .

● ثم قال رحمه الله في تأويل قوله تعالى : ﴿ **إن الله كان بكل شيء عليما** ﴾ يعني ذلك جل ثناؤه : إن الله كان بما يصلح عباده فيما قسم لهم من خير ، ورفع بعضهم فوق بعض في الدين والدنيا ، وبغير ذلك من قضائه وأحكامه فيهم « عليما » يقول : ذا علم فلا تتمنوا غير الذي قضى لكم ، ولكن عليكم بطاعته والتسليم بأمره ، والرضا بقضائه ، ومسألته من فضله .

● ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ الذي عَلَيْهِنَّ** ﴾ .

وإذا تمهد هذا فَلأَشْرَعْ في الاستدلال والله المستعان :

الدليل الأول : قوله تعالى : ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (١)

---

(١) البقرة ٢٢٨ .

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « إني أحب أن أتـزين لامرأتي كما أحب أن تتزين لي » ! تفسير ابن كثير .

قلت : وهذا بعض ما يجب لهن وليس كل ما يجب وإنما خصه ابن عبـاس بـالـذكر لكونـه ممـا يهمل عـادة والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ **وللرجال عليهن درجة** ﴾ .

قـال ابن كثير رحمـه الله « أي في الفضيلـة والخلـق والمنزلة وطاعة الأمر والإنفاق والقيام بالمصـالح والفضل في الدنيا والآخرة » . .

● وبهـذه المعـاني قـال علمـاء التفسير من الصحـابـة والتـابعين رضي الله عنهم ، والمعروف عن ابن كثير أنـه سلفي المـذهب ، واعتماده في تفسيره على مـا صـح من أقوال الرسـول ﷺ وصحـابتـه والتـابعين ، ولا يبتـدع رأيًا من عند نفسه ، وقد ذهب بعض خيـار النـاس إلى

أن المراد بالدرجة المذكورة تفرد الرجل بحق إرجاع المرأة المطلقة في عدتها ،ويقول بأن السياق يدل على ذلك ، غير أني لا أعلم أحدًا من السلف قال بمثل قوله رحمه الله ، فالحجة عليه بما أوردنا من كلام ابن كثير وما سأورده إن شاء الله .

• الدليل الثاني : ﴿ الرجال قوّٰمون على النساء ﴾ .

قال تعالى : **﴿ الرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى النِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾** .(١)

روى ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال « **الرجال قوامون على النساء** » يعني أمراء ، عليها أن تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته ، وطاعته : أن تكون محسنة إلى

(١) النساء ٣٤ .

أهله ، حافظة لماله ، وفضله عليها بنفقته وسعيه .

وبعـد أن استوفى ابن جرير أقـوال المفسرين من الصحابة والتـابعين قـال رحمـه الله : « فتـأويل الكلام إذن : قوامون على نسـائهم بتفضيـل الله إيـاهم عليهن ، وبإنفاقهم عليهن من أموالهم » .

• مشاركة المرأة في النفقة والسيادة ؟

فإن قلت :

فاليوم كثرة من النساء عاملات ، وهن يشاركن في النفقة التي جعلها الله من أسباب قوامة الرجل وسيادته فماذا تقول ؟

قلت :

جوابك من وجهين :

• **الأول** : أن النفقـة لم تكن المبرر الـوحيـد لسيـادة الرجل حتى يفقدها بمشاركة زوجه له فيها .

● والثاني : أن عمل المرأة بدعة سيئة إذا لم تكن معلمة لمثلها أو طبيبة أو نحو ذلك مما يتفق وخصائصها . وأسوأ من تلك البدعة انتشارها حتى أصبحت هي الأصل وما عداها شاذ مستغرب!!.وأفهم أن تعمل المرأة في حالة الضرورة الملحة التي تستلزم عملها واكتسابها ، أما أن تعمل وزوجها في غنى عنها فهذا ما لا تفسير له إلا نقص الرجولة في الرجال ، وضعف الغيرة عندهم حتى طلب ممن أوجب الله عليه نفقتها وحمايتها أن تعمل لتنفق عليه وتحميه فلا غرابة إذا رأينا كثيرًا من النساء يجهرن بالمساواة ولا يعترفن بنزولهن عن درجة الرجل ، فقد أذل الرجل نفسه وأعطى أنثاه حق التسلط ومبرر التطاول ، ولا أقول هذا شأن كل من يعملن ، ولكنه الأصل والقاعدة وما عداه فقليل شاذ ، وعلى كل حال فإن المرأة ليست مُلْزَمة شرعًا بالمشاركة في نفقة البيت ولو كان زوجها معسرًا ولا يحل للزوج

أن يأخذ منها قليلاً ولا كثيرًا بغير رضاها وعن طيب نفس منها .

﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ [1] وما أعطته المرأة لزوجها سواء أكان معسراً أو غير معسر فإما أن يكون هبة أو قرضاً واجب الأداء ، أما إن كان مُعْسِرًا فيجوز أن تجعل زكاة مالها له أو تتصدق عليه زيادة على الزكاة .

ولو عرف الرجال والنساء ذلك لتغير الكثير من العرف والتقاليد الجائرة .

فالعرف الجاري في بعض البلاد العربية الإسلامية من وجوب تجهيز بيت الزوجية من الزوجة هذا عرف باطل وسحت ظاهر وقع فيه للأسف حتى من يفقه من المسلمين العاملين لإسلامهم وبإسلامهم .

وكذلك سَعْيُ عامة الشباب للزّواج من فتاة عاملة

---

(١) النساء ٤ .

وكون ذلك شرطًا في رضاه بها والمداولة بينهما قبل الزواج في القدر الذي تستطيع الفتاة المسكينة تقديمه من نفقة وما نوع الأثاث الذي ستحضره بيتها ـ وليس بيته ـ كل ذلك من الباطل الذي لا يجوز عمله ولا الرضا به ، وإن جاز لغيرنا ممن يَدَّعون الإسلام فلا يحل أبداً لمسلم يدعو إلى الله على بصيرة .

وإذا أبى الرجل أن يعترف برجولته ولوازم قوامته ومبررات سلطاته ، وأبى إلا أن يُحَمِّل الأنثى الضعيفة مسؤولية المشاركة في مشاق الكسب والنفقة فإنه يحق لها أن تضع اللجام في فيه ونسأل الله العافية .

• والدليل الثالث :

دليل التبعية

ما جاء في الكتاب والسنة من خطابات وأوامر ونواه تعم الرجال والنساء على السواء بينما الصيغة فيها

تخص الذكور وحدهم فدل ذلك على دخول النساء في الخطاب بالتبعية وليس بالأصالة ؟

ومثال ذلك كثير غير أني أكتفي ببعض الآيات قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [١] ومعلوم أن المؤمنات أيضًا هذا شأنهن وشملهن لفظ المؤمنين بالتبع .

﴿ **وبَشِّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار** ﴾ [٢] والبشرى للمؤمنين والمؤمنات .

---

(١) النور ٥١ .

(٢) البقرة ٢٥ .

وقال تعالى : ﴿**فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ**﴾[١] فأفرد سبحانه لحوق المشقة بآدم بينما هي لاحقة به وبزوجه معه ، وكذلك قوله سبحانه : ﴿ **إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلاَ تَضْحَىٰ** ﴾[٢] مع أن هذا الوعد لآدم ، وزوجه دخلت بالتبع .

وروى البخاري أن رسول الله ﷺ قال : «**إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأته فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح** » متفق عليه .

ولم يرد قط حديث يلزم الرجل بما ألزم الله به المرأة في هذا المقام ، وبمثل ذلك جاء قوله ﷺ : « **إذا دعا الرجل زوجته لحاجته فلْتأته وإن كانت على**

(١) طه ١١٧ .

(٢) طه ١١٩ .

التنـور» يعني الفرن ، رواه الترمـذي وقـال حـديث حسن .

قلت : وفي الحديث دلالة على وجوب إجـابـة المرأة لزوجهـا مهما كانت مُنْهَكَةً في شـؤون بيتهـا ولـذا كان صومها النافلة لا يجوز إلا بإذن زوجها فدل ذلـك على تبعيتها الكاملة له .

وعن أم سلمة رضي الله عنها ـ وهي إحدى زوجات النبي ﷺ ـ قالت : قال رسول الله ﷺ : « **أيما امرأة مـاتت وزوجهـا عنهـا راض دخلت الجنـة** » رواه الترمذي وقال حديث حسن .

قلت : والشرط أن يكون الزوج من المـؤمنين حتى يكون رضاه عنها أو سخطه عليهـا على الميزان الشرعي الحق ، وإلا فبعض الأزواج لا يرضى عن زوجتـه حتى تشاركه حياة اللهو والعبث التي يحياهـا فمثلـه لا يعتـد برضاه ولا بغضبه .

وفي الحديث دلالة على التبعية أيضًا ، فإن دخولها الجنة بعد أداء حقوق ربها متوقف على رضوان زوجها عليها إذا كان مسلمًا بينما لا يتوقف دخول الرجل الجنة على رضا زوجه عنه لأن رضاهن وغضبهن على غير ميزان الشرع في الغالب لغلبة الأهواء على قلوبهن إلا ما رحم ربك .

والأصرح من كل ما تقدم ما رواه الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : « لو كنت آمرا أحداً أن يسجد لأحد لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها » .

ياقوم :

فماذا تحدون أقطع من هذا البرهان ؟

اللهم اهدنا لما اخْتُلِفَ فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .

والحمد لله رب العالمين .

الفَصْل الرابِع

وقليل منكن من يفعله

ذكرت أن الاعتراض الوارد على ما قررته من خصائص الأنوثة من وجهين :

• **الأول :** أن إنزال المرأة عن درجة الرجل وإثبات تبعيتها له وجعلها دونه في المكانة ، هذا إهدار لإنسانيتها ولا دليل عليه ، وقد أجبت عن ذلك في الفصل السابق وأقمت الدليل عليه والحمد لله رب العالمين .

• **والاعتراض الثاني :** أنه مع التسليم بصحة ما ذكرت فليس هو السبيل لتقويم المرأة وإصلاح عوجها .

وللإجابة عن هذا أقول والله المستعان :

• طاعة الجوارح فرع لخضوع القلب واستسلامه وهما أمران ليسا بالشيء اليسير ولا بالأمر الهين ، فليس

أشق على النفس من الخضوع والاستسلام ، ولا أَمَرَّ من إلزام الجوارح بالعمل على وفق الأوامر والنواهي ، اللهم الا بسياط الترغيب والترهيب ، وأعلى من ذلك مقامًا من أطاع حبًا للمطاع وطلبًا لرضوانه ، والحب لا يكون إلا لصفة في المحبوب أوجبت حبه ، وإلا فلا يكون حب ولا طاعة ، ولكن إكراه للجوارح عليها والقلب في عليائه يأبى الخضوع والتسليم .

● وقد طلب منا رسول الله ﷺ أن يكون حبنا لله ورسوله أعظم من حبنا لأنفسنا ، وذلك لاستحقاق رب العالمين ثم سيد المرسلين تلك المحبة أولاً ، ولأن المحبة إذا بلغت تلك الدرجة طوعت الجوارح للعمل على وفق الأوامر والنواهي دون كلفة ثانيًا ، ولأن هذه المحبة علامة على صدق الإيمان والمعرفة حتى جعل العبد هواه تبعًا لما جاء به رسول الله ﷺ ، وهذا ثالثًا .

فإذا أرسل الله إلينا رسولاً وأمرنا بطاعته فلا بد

أن نجزم أن هذا العبد المرسل أهْلٌ للرسالـة وحقيق بـه ألا يقول على الله إلا الحق ، وأن الله اختاره على علم به على العـالمين ، ومن هـذا شـأنـه ، وتلـك صفتـه ، نجـد أنفسنا متوجهين الى تصديقه وطاعته ، وقلوبنـا معلقـة بحبـه واستماع أمره ، فطرة فطرنـا الله عليها ، وجبلـة جعلها فينا .

* * *

• ولـما عرف عمر رضي الله عنــه فضـل أبي بكر على الصحـابـة رضـوان الله عليـه وعليهم جميعًـا بـايعـه على الخلافة وألزم نفسه بالسمع له والطاعة وقـال : « لأن أُقَـدَّم فتضرب عنقى أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر » ومـا ذلـك إلا لإدراكـه أفضليـة الصـديـق عليـه واعترافـه بـذلـك ، واستسـلامـه ورضـاه لتخصيص رب العالمين لأبي بكر بالفضل ، ومثل ذلك كثير ، فما بالنـا

نسخط إذا خص الله الرجل بالفضل على المرأة ، وكانت له عليها القوامة ؟

إذا تمهد هذا أقول وبالله التوفيق :

نحن لو تتبعنا ما خلق الله من شيء ، لرأينا آثار رحمته وآيات حكمته وقدرته بادية ظاهرة ، ولله الحجة البالغة .

ومن آيات رحمته سبحانه أنه أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ،وهذا مشاهد ، فما من مخلوق خلقه الله إلا آتاه سبحانه كال ما خلق من أجله ثم هداه لما خلق له ، وهذا في غير الإنس والجن واضح لخلوهم عن الاختيار الذي خص الله به الجن والإنس ، أما الإنسان فما أكثر ما تمرد على خالقه وخرج عن خصائصه وما خلق له ـ **﴿ إنه كان ظلوما جهولا ﴾ ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾**[1] .

---

(١) الجن ١٦ .

المــرأة

• والمرأة حين خلقهـا الله من ضِلَعٍ ، وآتـاهـا من الخصائص والصفات مـا ذكرتُ بعضـه فيما سبق ، فـإنـه من مقتضى رحمته سبحانه وحكمته أن نؤمن أنه أعطاها كمال خلقها الذي خلقت له ، وتمام مـا بـه تمـام أنوثتهـا التي اختصت بهـا ، ولو ظننـا غير ذلـك لكان من سوء الظن بـالله سبحـانـه وتعـالى علـوًا كبيرًا ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [١] .

* * *

(١) السجدة ٦ / ٩ .

• وإذا كان من مقتضى سنة الله تعالى في نظام الحياة واستقرار الأمور أن يكون أمير مطاع ومأمورون طائعون وحاكم متبوع ومحكومون تابعون حتى أن رسول الله ﷺ أمر الثلاثة أن يُؤَمِّروا عليهم واحدًا منهم ، إذا كان ذلك كذلك ، فإن تخصيص أحد الجنسين على الآخر بخصائص القوامة والفضل حتى يخضع المفضول للأفضل ، ويطيع الأصغر الأكبر ، حتى لا تجد المرأة غضاضة في الخضوع ، ولا حرجًا في الطاعة والتسليم ، ولو خلق الله المرأة وجعلها في مرتبة الرجل ، وآتاها من مقومات القوامة ما تناطح به الرجل ، ثم أوجب عليها بعد ذلك طاعته ، وجعلها تحت حكمه ورعايته لكان ذلك عليها شاقًا عسيرًا كما يشق على أحدنا أن يتحكم فيه رئيس له غير كفء للرئاسة ، ولفسد بذلك النظام ، وانعدم الأمن والسلام ولرأينا من ذلك عجبًا ، ولكن الحكيم الخبير ،

قضى بالحق وحكم بالعدل وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى وأحمد الله رب العالمين .

• بناء على الأصل

وإذا تأصلت تلك الحقيقة ، ظهر منها الجواب على من قال : ليس هذا طريق إصلاح المرأة ، ذلك أن جهل المرأة بطبيعتها من دواعي كبريائها ، وعدم اعترافها بأنوثتها من أعظم أسباب شقوقها ، فلابد من تعريفها بنفسها ، وإفهامها حقيقتها ، وتعليمها رسالتها وخصائص أنوثتها لعلها أن تسلم بذلك فتسلم ، أو تكون جاهلة فتعلم وإذا أراد الله بها خيرًا هداها ، ونفعها بما علمها من أمور دينها ودنياها .

وإني لأعرف كثيرا من النساء الفاضلات ممن يعترفن بسيادة الرجل عليهن ، وسبقه بالفضل لهن يسعدن لهذه الأفضلية ، ويسكن لهذه السيادة ، ويجدن الراحة والطمأنينة في ظل القوامة الحكيمة الرشيدة .

كما أعرف بعض النســـــاء ، ممن جهلن طبيعتهن أو تجاهلنهـا ، تمردن على أنوثتهن ، واجترأن على أزواجهن وأبين إلا أن تكون القوامـة لهن ، وفزن بهـا بعـد صراع أو بغير صراع فجنين ثمار ذلك تعاسة وشقوة ، وياليتها لحقت بهن وحدهن ولكن أصابت تلـك التعـاسـة أزواجهن وأولادهن ومن حـولهن ، وفي النهـايـة تصيب الشقـوة أوطانهن وأمتهن ، وصـدق رسول الله ﷺ : « **لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة** » وما يبـدو من فلاح أمم وكلت أمرها لامرأة ، فما ذلك بفلاح ، وإنما سـادوا بضعف من سادوهم لا بقوتهم هم ، وعزوا بذلـة من أذلوهم لا بعزتهم هم ، والحمـار يتطـاول على الصرصـار في غَيْبـة الفرس الكَرّار فإذا ظهر كان مجرد ظهوره هزيمـة لـدعوى غيره من الأدعياء .

● **فاصدع بما تؤمر**

أما القول بأنه ليس من الحكمة الجهر بذلك للنسـاء

حتى لا يسخطن على تلك القسمة ، فقول باطل والدليل على خلافه قائم .

فإنه من الجهل بطبيعة المرأة إطراؤها وإعلاء شأنها والتجاوز بها عن حدها ، فإن ذلك يبعث غرورها ويزيدها عتوًا ويفسد فطرتها ، وليس معنى ذلك عدم اللطف بها والإحسان إليها والصبر عليها والعفو عن هفواتها فإن ذلك مندوب إليه بل مأمور به ، فقد صح عنه ﷺ قوله « **خيركم خيركم لأهله** (يعني لزوجه) **وأنا خيركم لأهلي** »

• وإنما المقصود أنه ليس من الرحمة بالمرأة إخفاء حقيقتها عنها ، فإن ذلك غش لها وخديعة ، فقد كان أول قول رسول ﷺ لجماعة من النساء حين أراد أن يعظهن « **يامعشر النساء تصدقن واستغفرن الله كثيرًا فإني رأيتكن أكثر أهل النار ، فقالت امرأة منهن جذلة ـ يعني ذكية ـ ولم يارسول الله ؟ قال : تكثرن**

اللعن ، وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لُبٍّ منكن .. » إلى آخر الحديث الذي اتفق عليه البخاري ومسلم .

أفرأيت رسول الله ﷺ أشفق على النساء أن تقرع أسماعهن تلك الموعظة القاسية أن ينذرهن ذلك الإنذار الرهيب ، أم أنها حكمة النبوة وأمانة الرسالة ينبغي أن تؤدى ولا يكتم منها شيء ؟

بل .. ﴿ **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين** ﴾ ﴿ **يأيها النبي بلغ ما أنزل إليك من ربك** ﴾ .

وقد قال رسول الله ﷺ : « **من علم علماً فكتمه ألجم بلجام من النار يوم القيامة** » .

● ولكن .. ألا تستطيع المرأة الحصول على ثواب ما تميز به الرجل من أعمال كالجهاد مثلاً والاستشهاد ؟

روى ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة جاءت إلي رسول الله ﷺ فقالت : يارسول الله ، أنا وافدة النساء إليك هذا الجهاد كتبه الله على الرجال ، فإن يصيبوا اجروا ، وإن قتلوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون ونحن معشر النساء نقوم عليهم ، فما بالنا من ذلك ، فقال الرسول ﷺ :

« أبلغي من لقيت من النساء أن طاعة الزوج واعترافا بحقه ، يعدل ذلك ، وقليل منكن من يفعله » .

فانظر إلى قوله ﷺ **« واعترافاً بحقه »** وإلى قوله **« وقليل منكن من يفعله »** أفلا يدل ذلك على طبيعة ملتوية ينبغي أن تعرفها كل امرأة في نفسها حتى تكثر من الاستغفار والصدقة لعل الحسنات يذهبن السيئات ؟ ..

أم من الأمانة كتمان ذلك عنها ، وإطراء أنوثتها ،

وخديعتها في حقيقتها ، حتى تلقى الله بجهلها ، و يأثم بذلك من ملك تعليمها ؟ ..

وما جاء في أمر النساء كله مما يجب تبليغه ولا عذر في كتمانه .

فمن قوله ﷺ :

« اطلعت في النار فإذا أكثر أهلها النساء ، يكفرن العشير ، ولو أحسنت إلى إحداهن الدهر ، ثم رأت منك شيئاً قالت : ما رأيت منك خيرًا قط » رواه البخاري .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ : أي الناس أعظم حقاً على المرأة ؟ قال : زوجها ، قالت : فأي الناس أعظم حقاً على الرجل ؟ قال : أمه » رواه الحاكم .

وعن عبـد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « **حق الزوج على زوجته ألا تمنعـه نفسهـا ولو كان على ظهر قتب ـ يعني بعير ـ وألا تصوم يومًا واحـدًا إلا بـإذنـه ، إلا لفريضـة ، فـإن فعلت أثمت ولم يتقبل منها ، وألا تعطي من بيتهـا إلا بـإذنـه ، فـإن فعلت كان له الأجر وعليها الوزر وألا تخرج من بيته إلا بإذنه ، فإن فعلت لعنها الله وملائكـة الغضب حتى تتـوب أو ترجـع ، وإن كان ظـــالمًـــا** » رواه أبــو داود الطيالسي .

وبعد :

فأعجب لمن خالف كيف خالف ؟ ..

وأعجب لمن أراد الإخفـاء كيف استبـاح لنفســه ذلك ؟

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [١] .

---

(١) الحشر ١٠ .

الفَصْل الخامسْ

ضرب من الأمثال

خالق الكون واحد وهو رحمن رحيم فلا جرم ظهرت آيات وحدانيته ودلائل قدرته ومظاهر رحمته في كل ما خلق سبحانه ومن رحمته أنه نصب لنا آيات كونية وجعلها بفضله مما يقرب إلى عقولنا بعض أسرار خلقه ، ومن ذلك أنه خلق الشمس وجعلها نورًا لأبصارنا وكما أنزل سبحانه من السماء ماء فنبتت بإذن الله جنات حسان ثم ما لبثت أن ذوت وصارت هشيمًا تذروه الرياح فكان هذا مثالاً للحياة الدنيا في سرعة تَصَرُّمِهَا وزوال بهجتها قال تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ (١) .

---

(١) الكهف ٤٥ .

وكما جعل سبحانه السراب مثالاً لخيبة الكافر حين يقبل على الله يظن أن له عَملاً ينفعه فلا يجد شيئًا وهو قوله تعالى : ﴿ **وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ** ﴾(١) .

وفي القرآن والسنة من ذلك الكثير تقريبًا للعلم للناس وتوضيحًا لما غمض من الأسرار ، فتأمل تجد خيرًا كثيرًا إن شاء الله .

• الأرض والقمر

الأرض والقمر آيتان من آيات الله ، ومن إيماني بأن الله لرحمته بنا قرب إلينا بعض أسرار خلقه بطريق الأمثال ، فإني تأملت فوجدت القمر أقرب ما يكون مثالاً لخصائص الأنوثة ، وإذا صدق ذلك ،

---

(١) النور ٣٩ .

فأرجو أن يكون فيه جلاء لكثير مما غمض علمه ودق فهمه من طبيعة المرأة .

فأقول والله المستعان والهادي إلى الصواب :

● القمر كالمرأة .. هو تابع للأرض وهي تابعة للرجل

القمر تابع للأرض ، لأنه عنها انفصل ، فهي له الأصل وهو لها تبع ..

والمرأة كذلك ، تابعة للرجل ، لأنها منه خلقت ، فهو لها الأصل ، وهي له تبع ..

والقمر يدور حول الأرض ، فهو أسيرها ، سائر في فلكها ، ولو انفصل لاضطرب نظام الكون .. .

والمرأة كذلك ، تدور حول الرجل ، فهي أسيرته ، سائرة في فلكه ، ولو تمردت وعتت لاضطرب نظام الحياة ..

ودوران القمر تعبير عن تعلقه وشوقه ورغبته في العودة إلى الاتحاد بأصله ..

وكذلك الحال عند المرأة ..

والقمر لا يدور إلا حول الأرض ، ودورانه حول الشمس بالتبع لدوران الأرض حولها ، فليس له استقلال عن الأرض ، ولا ينبغي له أن يستقل ..

وكذلك المرأة .. ليسَ لها استقلال عن الرجل ، وإنما هي تابعة له حيث حل فهي معه كما قال تعالى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُمْ مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ [١] .

• الأمومة ومقتضياتها هي كل ما تتطلع له المرأة

الأرض تدور حول الشمس وحول نفسها والقمر ليس له إلا الدوران حولها بالأصالة وحول الشمس

---

(١) الطلاق ٦ .

بالتبع .. وهذا يدل على أن الرجل يعيش لغير ما تعيش له المرأة ، ويتطلع لغير ما تتطلع هي إليه ، فالأمومة ومقتضياتها من توفر الزوج والحماية هي كل ما تتطلع له المرأة وتعيش من أجله ، بينما الرجل يطمح إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير ، والمرأة عنده والولد بعض مما خلق له لا كله ..

• القمر وجهه للأرض ..

والقمر يدور حول الأرض بوجهه ، وظهره مظلم مجهول ..

وهذه إشارة إلى أن المرأة لا ينبغي لها أن تعطي الرجل إلا وجهها ، وهذا هو الوجه الطبيعي في العلاقة بين الزوجين ، وما عداه فشاذٌ مستنكر قال تعالى : ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ .[1]

---

(١) البقرة ٢٢٢ .

والقمر إذا اقترب من الأرض ازدادت جاذبيته لها وإذا ابتعد ضعفت تلك الجاذبية ..

وكذلك المرأة في بعدها وقربها من الرجل .. قال تعالى حكاية عن يُوسُفَ عليه السلام : ﴿ **وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَٰهِلِينَ** ﴾ .[1] .

والقمر في غالب أحيانه ناقص النور غير مكتمل ، ويكتمل أيامًا قليلة لعلها ثلاثة من الثلاثين .. وكذلك النساء ، النقص فيهن أغلب ، وإذا اعتدلن واكتملن فعلى الندور .

والقمر يتخذ شكل الضلع في تقوسه كالمرأة حين خلقت من الضلع ، وذلك إشارة إلى ما سبق بيانه ..

---

(١) يوسف ٣٣ .

• دورة القمر ودورة المرأة

ودورة القمر ثمانية وعشرون يومًا ودورة الطمث عند المرأة كذلك ، لا تزيد عند المرأة السوية ولا تنقص ، فإن اضطربت فلمرض طارىء ..

والقمر يكتمل نوره في اليوم الثاني عشر أو الثالث عشر من بداية دورته ويظل في أوْجِهِ ثلاثة أيام تقريبًا تسمى في الشرع - الأيام البيض - وقد حث رسول الله ﷺ على صومها لأنه مَظِنَّة الثواب العظيم .

وكذلك المرأة تنضج بويضتها ، وتستعد للحمل في اليوم الثاني عشر أو الثالث عشر من بداية الحيض وتظل في أوج استعدادها ثلاثة أيام تقريبًا تقابل الأيام البيض من الشهر القمري .. واستحباب الصوم في الأيام البيض يقابله استحباب ما يناسب تلك الأيام عند المرأة لمن رغب في الذرية .

• خسوف القمر

أمرنا رسول الله ﷺ أن نفزع إلى الصلاة حين يقع الخسوف أو الكسوف ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه « نقض المنطق » إن هذا يدل على ارتباط هاتين الحادثتين بنزول قدر من السماء نسأل الله رفعه بالصلاة المسنونة ويستدل بقوله ﷺ : « **إن الدعاء والبلاء ليلتقيان فيعتلجان** » .

قلت : والخسوف في حقيقته غشيان الأرض للقمر أي توسط الأرض بين الشمس والقمر ، والغشيان مَظِنَّة حدوث الحمل كما قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ** ﴾ . (١)

فكما شرعت الصلاة والدعاء فترة غشيان الأرض للقمر شرع الدعاء عند إرادة غشيان الرجل للمرأة ، قال رسول الله ﷺ :

---

(١) الأعراف ١٨٩ .

« لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : بسم الله ، اللهم جَنِّبْنا الشيطانَ وجَنِّبِ الشيطان ما رزقتنا ، فإن قدر بينهما في ذلك ولد ، لن يضر ذلك الولدَ الشيطانُ أبداً » . رواه البخاري ومسلم .

• الكسوف .. والمرأة إذا حالت بين الرجل والحق

أما إذا توسط القمر بين الشمس والأرض ـ أي حال القمر دون وصول نور الشمس إلى الأرض ـ فعند ذلك تظلم الأرض وهو الكسوف .

وكذلك المرأة إذا حالت بين الرجل ونور الحق أن يصل إليه وفتنته عن ذلك فإنه يظلم قلبه حتى يتحرر من فتنتها ، ويزول عنه سحرها ، ويعود للتعرض لنور الحق والاهتداء بهديه .

والذين يحسون بجمال القمر ، ويلمسون سحره ويتمتعون بأنسه ، هؤلاء النفر قليلون ، ولعل منهم

الشعراء والفنانين وذوي الأفئدة الحية ، والجامع بينهم حياة الباطن وطهارة القلب وسمو الخلق ، وتلك صفات المؤمنين ﴿ **ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ** ﴾[1] .

وكذلك الذين يقدرون المرأة ، ويعترفون بإنسانيتها ، ويصونون كرامتها ، ولا يرونها حيواناً مستذلاً ، أنهم قليل ، لأنهم المؤمنون ، لا أولئك الذين خدعوها بمعسول القول ، واستنزلوها من عليائها بحلو الكلام ، وغرروا بها واشتروا وباعوا ، وجردوها من ثيابها وحيائها وفضائلها باسم الحضارة والمدنية وجعلوها سلعة رخيصة وما أرخصها ، واصطادوا بها المال والجاه والسلطان حين استغلوها في أحط أنواع الدعاية

---

(١) آل عمران ١٩١ .

والإعلان ، والعجيب أنهم وهم حين يفعلون ذلك بها ، ينحنون لها ، ويقبلون يدها ، ويقدمونها في المجالس ، ويجعلونها الآمرة الناهية ، فلست أدري ممن أعجب ، وكيف أعجب ولست أدري متى تدرك المرأة من هو الإنسان ومن هو الحيوان ، ولعلها لا تدري ولن تدري ، فكثيراً ما تعشق جزارها وهي تعلم ، وتسعى إلى هلاكها برجليها وهي تفهم ، فهل كثير عليهن أن يوصفن بنقصان العقل والدين ، أم ظلم لهن أن يكن أكثر أهلّ النار ؟!

﴿ يَـٰبَنِي ءَادَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ﴾[١] .

---

(١) الأعراف ٢٧ .

• الشمس

فإن قلت :

قد عرفنا بعض أوجه الشبه بين الأرض والقمر ، والرجل والمرأة ، فما مقام الشمس في التشبيه ؟

أقول :

إذا صح أن الأرض انفصلت عن الشمس ثم انفصل القمر عن الأرض ، تكون نسبة الأرض إلى الشمس كنسبة آدم عليه السلام إلى الأرض التي خلق منها ، وتكون نسبة القمر إلى الأرض كنسبة حواء إلى آدم عليهما السلام .

وكما أن الأرض والقمر كليهما يستمدان حياتهما من الشمس ـ ولا حياة ولا وجود إلا بالله ـ كذلك الرجل والمرأة فإنهما يعيشان بإذن الله مما تنبت الأرض وتعطي من رزق الله ، ولا بقاء لهما ولا وجود إلا بالله .

فإن قلت :

فهل تزعم أن ما ذكرته قضية مُسَلَّمة ، بحيث يجب اعتقاد صحته ولا يجوز عقد القلب على خلافه ؟

أقول :

أما أصل عقد المقابلة بين الشمس والأرض والقمر وبين الرجل والمرأة فذلك اجتهاد مني مستنده وجود أمثلة للتشبيه في القرآن والسنة زيادة في البيان والإيضاح ، ورحم الله من قال :

فالله قد ضرب الأقل لنوره
مثلاً من المشكاة والمصباح

ويعنى بذلك قوله تعالى : ﴿ **اللهُ نُورُ السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ** ﴾ .[1]

ولكل إنسان أن يقبل أصل تلك المقابلة التي

---

(١) النور ٣٥ .

عقدتها أو لا يقبل ، إذ لا يلزم وجوب الاعتقاد إلا بالدليل الشرعي الصحيح .

أما صور التشابه والتمثيل التي ذكرتها فيختلف وجوب التسليم بها باختلاف دليل كل صورة فما له دليل شرعي صحيح يجب التسليم به ولا يجوز خلافه كحرمة إتيان المرأة في دبرها لثبوت قوله ﷺ : « **من أتى امرأة في دبرها فهو كافر بما أنزل على محمد** » رواه الترمذي بسند صحيح .

أما ما كان دليله غير يقيني فأنت بالخيار ، إن اطمأن قلبك إلى الصحة أخذت به وإلا تركت . , وذلك كعقد المقابلة بين الأيام البيض في الشهر القمري ومقابلها عند المرأة وما رتبت على ذلك من نتائج ، فإن الأيام البيض في الشهر القمري ثابتة شرعاً واستحباب صومها كذلك أما ما فيه شك فهو يقين استعداد المرأة للجمل في اليوم الثاني عشر أو الثالث

عشر من بدء الحيض واستمرار ذلك في الأوج مدة ثلاثـة أيام ، فإن دليل هذه المسألة علمي طبي وربما يقع فيـه الشـك فلا إلـزام في اعتقـادي صحـة أمثـال ذلـك والله أعلم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفَصْل السادسْ

الحب .. ما لنا منه وما علينا

قال ابن تيمية رحمه الله في كتاب العبودية :

« آخر مراتب الحب هو التَّتَيُّمَ ، وأوله العلاقة لتعلق القلب بالمحبوب ، ثم الصبابة ، لانصباب القلب إليه ، ثم الغرام ، وهو الحب الملازم للقلب ، ثم العشق ، وآخرها التتيم ، يقال : تَيْمُ الله ، أي عبد الله ، فالمتيم : المعبد لمحبوبه » .

قلت :

وكل ذلك يندرج تحت لفظ « الحب » وليس كما يعتقد بعضهم تبعًا لتقسيمات علماء النفس المحدثين أن الحب مرحلة وسط ، دونه الإعجاب وفوقه العشق ، فإن الألفاظ وضعت للدلالة على معانيها عند العرب ، وليس لنا أن نخرج اللفظ عن معناه الموضوع له إلا

بـالاصطـلاح العرفي أو الشرعي ويبقى المعنى اللغـوي ثابتًا لا يتغير .

وإذا أطلـق لفـظ الحب دل على معنـاه بحسب القرينة ، فمثلاً إذا قلنا : « يحب الأطفـال اللعب » دل ذلـك على أن معنى الحب هنـا هـو التعلـق ، يعني أن قلوب الأطفال معلقة باللعب ، وإذا قرأنا قوله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا أشد حبًا لله** ﴾ علمنا أن المراد بـالحب هنا هو أعلى مراتبه هو : التتيم ، أي العبوديـة المطلقـة لله ، أو كمال الذل والطاعة له .

• أقسام الحب باعتبار المحبوب

وإذا تقدم بيان أقسـام الحب بـاعتبـار درجـاتـه في ذاته فلننظر إلى أقسامه باعتبار غايته وتوجيهاتـه وهو بهذا الاعتبار ينقسم إلى أربعة أقسام :

- **الأول :** حب الله لله .
- **الثاني :** حب الله لغير الله .
- **الثالث :** حب غير الله لله .
- **الرابع :** حب غير الله لغير الله .

• حب الله لله

أما حب الله لله ، فحبه سبحانه حبًا خالصًا من أية شائبة من شوائب حظوظ النفس العاجلة والآجلة ، بمعنى أن يحب الله تعالى من حيث إنه مستحق للعبادة والحب لذاته ، حتى لو تصور عدم الجنة والنار لما نقص حبه مقدار ذرة ، وهذه منزلة الملائكة المقربين والأنبياء والصديقين ، ومن هؤلاء كانت رابعة العدوية رضي الله عنها ويدل عليه قولها تناجي ربها :

أُحبُّـك حبين ، حب الهـوى
وحبـاً لأنـك أهـل لـذاكا

وهؤلاء رضي الله عنهم إنما نالوا تلك المنزلة العالية وتسنموا ذلك المقام الرفيع باصطفاء الله لهم واختصاصه إياهم بالفضل والرحمة ، وتطهيره قلوبهم ، وتكملة فضائلهم ، حتى أنار قلوبهم بمعرفته ، وعمرها بملائكة رحمته ، وشرحها بمزيد الإيمان به والإسلام له وصدق الله العظيم : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَانَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ** ﴾ (١) وقال سبحانه ﴿ **وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ** ﴾ (٢) فاللهم اجعلنا منهم ومتعنا بعفوك وعافيتك في الدنيا والآخرة إنك على كل شيء قدير .

---

(١) آل عمران ٣٣ .

(٢) البقرة ١٠٥ .

● حب الله لغير الله

أمـا من أحب الله لغير الله ، فمثـال ذلـك عـامـة المؤمنين الذين يعبدون الله ليعطيهم في الدنيـا والآخرة وهي درجة محمودة كذلك ، إذ لا غضاضة أن يعبـد الله ويحبـه لمـا يغـذونـا بـه من النعم ومـا يصرفـه عنـا من النقم ، فهو المخوف المرجو ولا حول ولا قوة إلا به ، إلا أنها منزلة على علوها أدنى من تلك التي تقدم شرحهـا ، وفي كلٍّ خير .

● حب غير الله لله

أمـا حب غير الله لله ، فكمن أحب رسـل الله من حيث إنهم هـداة إلى الله ، وكمن أحب الصـالحين من عبـاد الله من حيث إنهم عـابـدون لله ، وكل من أحب غير الله من حيث إنه يقربه إلى الله ، أو لكونه صـالحـًا من عباد الله ، أو لأنه يعينه على طاعة الله فكل ذلـك من بـاب ـ الحب لله ـ وقـد توسع الإمـام الغزالي رضي الله عنه حتى جعل حب الإنسان لخادمه من حيث انـه

يُفَرِّغه لطاعة الله من باب « الحب في الله لله » ومما جاء في هذا الباب قوله ﷺ :

« **من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان** » . رواه أبو داود بسند حسن.

ومما يدخل في باب الحب لله ويثاب المرء عليه أن يحب الرجل زوجته والمرأة زوجها من حيث إن كلا منهما عون للآخر على طاعة الله ، ووسيلة للتمتع بنعم الله ، وسبب في العفة والانصراف عما حرم الله .

● حب غير الله لغير الله

أما حب غير الله لغير الله ، فذلك الحب المذموم ، وهو المقصود بقوله تعالى : ﴿ **أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ** ﴾[1] فهؤلاء معبودهم هواهم وما يشتهون ، وفي

---

(١) الجاثية ٢٣ .

صحيح البخاري عن النبي ﷺ : « **تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة** » فسمى من أحب الدرهم والدينار والقطيفة حتى ملكه ذلك الحب وجعله ينصرف عن طاعة الله ويفتتن به عن دين الله ، سماه رسول الله ﷺ عابدًا لغير الله .

ومن هذا الباب حب الرجل للمرأة وحب المرأة للرجل على غير قانون الشرع .

فإن قلت :

فما مناسبة هذا الباب لما نحن بسبيله من بيان خصائص الأنوثة ؟

أقول :

المناسبة من وجهين .

* * *

• وجه يتعلق بحب الرجل للمرأة :

• ووجه يتعلق بحب المرأة للرجل .

* * *

وخصائص الأنوثة تتبدى في الوجهين كليهما وبيان ذلك كالأتي :

• أولاً : حب الرجل للمرأة :

وأقصد بالحب هنا معنى قوله تعالى : ﴿ **وجعل بينكم مودة ورحمة** ﴾ وهو ما يكون في الرجل والمراة من ميل كل منهما للآخر بمقتضى الجبلة البشرية حتى سعيا بإذن الله إلى التلاقي وكان من تلاقيهما الذرية واستمرار النوع ، وكل ذلك يجعله سبحانه ليكون ما أراد ولا يكون إلا ما يريد .

والحب بهذا المعنى .. إما أن يكون محمودًا أو مذمومًا

أما المحمود فهو حب الزوجين كل منهما لصاحبه ، بحيث يكون ذلك الحب على ميزان الشرع ولا يطغى حتى يخرج صاحبه عن حدود الله وإلا صار مذموماً ولبيان هذا المعنى يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتاب العبودية .

« الرجل إذا تعلق قلبه بالمرأة ولو كانت مباحة له يبقى قلبه أسيرًا لها تحكم فيه وتتصرف بما تريد وهو في الظاهر سيدها لأنه زوجها أو مالكها ولكنه في الحقيقة هو أسيرها ومملوكها ولا سيا إذا علمت بفقره إليها وعشقه لها ، وأنه لا يعتاض عنها بغيرها فإنها حينئذ تتحكم فيه تحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور ، الذي لا يستطيع الخلاص منه بل أعظم فإن أمر القلب أعظم من استعباد البدن » .

* * *

• حرية القلب

إلى أن قال رحمه الله

فالحرية حرية القلب ، والعبودية عبودية القلب ، كما أن الغنى غنى النفس قال النبي ﷺ : « **ليس الغنى عن كثرة العرض ، وإنما الغنى غنى النفس** » متفق عليه .

وهذا لَعَمْرُ الله إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة يعني زوجته فأما من استعبد قلبه صورة محرمة امرأة أو صبي ، فهذا هو العذاب الذي لا يدانيه عذاب ، وهؤلاء عشاق الصور من أعظم الناس عذابًا وأقلهم ثوابًا ، فإن العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقًا بها مستعبدًا لها ، اجتمع له من أنواع الشر والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى ، فدوام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشد حذرًا عليه ممن يفعل ذنبًا ثم يتوب منه ، ويزول أثره

من قلبه ، وهؤلاء يشبهون السَّكَارى والمجانين كما قيل :

سُكْران : سكر هوى وسكر مدامة
ومتى إفـــاقـــة من بــــه سُكران ؟!

وقيل :

قـالوا جُننتَ بمن تهوى فقلت لهم
العشـــق أعظم ممـــا بـــالمجـــانين
العشق لا يستفيق الدهرَ صاحبُـه
وإنمـــــا يصرع المجنـــون في حين

ثم قال رحمه الله :

« وإن من أعظم أسباب هـذا البلاء إعراض القلب عن الله » انتهى بنصه .

• النظرة مفتاح الشر

قلت :

والرجل على قوته ضعيف أمام فتنة النساء ولا يملك لذلك دفعًا ، ومن هنا أمره سبحانه بغض البصر فإن النظرة مفتاح الشر قال سبحانه :

﴿ قُل لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ [1] .

وقال رسول الله ﷺ : « **النظرة سهم من سهام إبليس المسمومة من تركها خوفًا من الله أبدله الله بها إيمانًا يجد حلاوته في قلبه** » .

وقد جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وخلق الإنسان ضعيفا** ﴾ أي في أمر النساء .

---

(١) النور ٣٠ .

وقال رسول الله ﷺ : « **اتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء** » .

وقال : « **ما تركت بعدي فتنةً أَضَرَّ على الرجال من النساء** » .

وقال : « **ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لُبٍّ منكن** » ، يعني على الرغم من نقصانكن فإنكن تغلبن ذا العقل الراجح من الرجال ، وما ذلك إلا بما آتى الله الأنثى من خصائص الفتنة والسحر والجمال حتى لا ينجو من حبائلها إلا من رحمه ربك كما قال سبحانه : ﴿ **فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم** ﴾ وقال سبحانه : ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** ﴾ .

• ثانيًا : حب المرأة للرجل

المرأة على ضعفها أقدر من الرجل على مقاومة الفتنة والإغراء بما آتاها الله من حياء فطري ، وما خصها به من برود نسبي وميل إلى التسامي في العاطفة إلى مستوى الحب والعطف والحنان ، فميل المرأة إلى إشباع رغباتٍ الجسد أقل منه عند الرجل ، بل أقول : إن المرأة بطبيعتها تنفر أشد النفور من لقاء بينها وبين زوجها خال من العاطفة ومظاهر الود ، وربما يشبعها ويرضيها كلمة حب أو تقدير بينما يحزنها أن ترى زوجها يأتيها كما يأتي الحيوان أنثاه ولا شيء قبل ذلك ولا بعد .

وقد وردت في هذا الباب أحاديث مفيدة ذكرها الإمام الغزالي في كتاب النكاح من الإحياء جـ ٢ وكذلك الإمام ابن القيم في كتاب « زاد المعاد » .

• حقيقة غائبة

وهنا حقيقة هامة غائبة ، وجب بيانها ، ومسألة دقيقة يتعين برهانها ، تلك هي أن الحب الحقيقي بين الرجل والمرأة إنما هو حب الزوج لزوجته وحب الزوجة لزوجها إذا كانا على الحق الذي شرعه لهما ربهما ، وتلك حقيقة لا مراء فيها شهد لها الشرع ، وشهد لها الطب ، وشهد لها الواقع بالتجربة .

أما شهادة الشرع فقوله ﷺ لامرأة صحابية نُعيَ إليها عدد من أقرب الناس إليها استشهدوا مع رسول الله ﷺ فصبرت وقالت إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم نُعيَ إليها زوجها فصرخت . فقال رسول الله ﷺ : **« إن زوج المرأة منها بمكان »** .

أما شهادة الطب فقد ثبت قريبًا ما نص عليه رسول الله ﷺ بوحي من الله حين قال : « **من كان**

يؤمن بـالله واليوم الآخر فلا يُسق مـاءه ولـد غيره » رواه أحمد وأبو داود بسند صحيح .

ويعني بـذلـك نكاح الحـامل قبل أن تضع حملهـا ، فقـد ثبت مضمون الحـديث السـابق وهو أن المرأة تمتص ماء الرجل وتتغذى بـه ويتغـذى بـه جنينهـا وإذا كان ذلك كذلك فإن الزوجـة تصبح عن قريب قطعـة من زوجها ، وتبعًا لـذلـك فـإنهـا تراه في نفسهـا وتجـده في ذاتها ، وتحس به بين طياتها وكذلـك الزوج فـإنـه يرى فيهـا ذاتـه ، ويجـد فيهـا حقيقتـه ، ويحس في روحهـا روحه ، وهذا هو السر في ازديـاد الحب الزوجي توثقًا كلمـا تقـدم الزوجـان في العمر وطـالت الحيـاة . إذ لو كان الرباط بينهما شباب الجسد وفتنـة الشبـاب لانتهى كل شيء بقـدوم الشيخـوخــة ، غير أن الأمر أعمـق من ذلك وأكمل والحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه .

أمـا شهـادة الواقع ، فـإن واقـع كل زوجين مسلمين

يطيعان الله ورسوله في الأوامر والنواهي يشهد بما قلت ، ويثبت ما قررت ، ولو كره الفاجرون الذين يجعلون من العلاقة الآثمة بين العشاق أسمى علاقة ويسخرون من الزواج والزوجية والأزواج . ويتخذونهم مضرب الأمثال في التعاسة والأحزان وذهاب البهجة والسرور ، وحلول الملل والسآمة .

وبعد :

فلا أجد ما أختتم به هذه السلسلة إلا قول رسول الله ﷺ : **« الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة »** (أخرجه مسلم) .

والحمد لله رب العالمين

* * *

فهرس الموضوعات



الكتاب في سطور

إن إدراك المرأة لطبيعتها هو أول الوسائل لكي تعرف خصائصها وتدرك حقيقتها، فتضع نفسها موضعها. وما سقطت امرأة إلا حين جهلت طبيعتها، وأنكرت خصائصها، وتمردت على أنوثتها.

وكذلك فإن إدراك الرجل لطبيعة المرأة هو أول الطرق لمعرفة كيف يسوس الرجل المرأة، وبم يفسر سلوكها، وما الذي يصلحها، وما الذي يفسدها؛ فالضارب في أرض مجهولة لديه أولى به أن يتيه في مجاهلها، ويضل في مفاوزها.

الناشر
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية
هاتف: ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ - ٥٩٣٢٨٢٠ - ٤٠٥٤٦٤٢
فاكس: ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)
الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٢+)
email:info@dar-alsalam.com
www.dar-alsalam.com